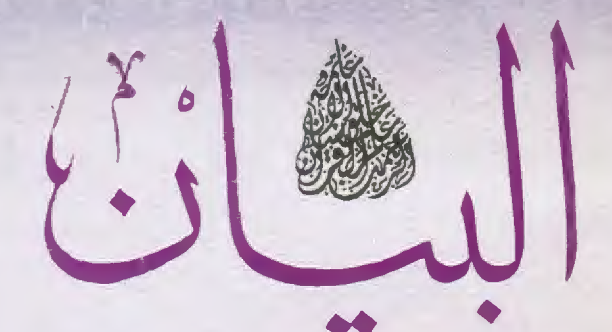




مجلة فصلية
ثقافية
حضارية
تصدر عن
جامعة آل البيت

المجلد الأول   العدد الرابع   خريف ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

الضمير «أنا» في القرآن الكريم

قحطان عبدالرحمن الدُّوري*

رأيت كثيراً من الباحثين وطلبة الدراسات العليا في رسائلهم التي يعدونها لنيل درجة الماجستير والدكتوراه يقولون: (أنا، ونحن...) ونحو ذلك من الألفاظ التي توحي أنهم بلغوا الغاية وزادوا على الحد في المراتب العلمية غروراً.

بل رأيت من يتطاول على أكابر العلماء والشيوخ، مع أنه ما زال طفلاً رضيعاً يحبو في طريق العلم.

وما ذلك إلا بعد أن اضناهم التعب، وغمرهم الفرح بما وصلوا إليه.

لكن من بدهيات آداب البحث أن يكون الباحث متواضعاً، معتقداً أنه كلما ظن أنه قد علم فقد جهل، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف النصوص القاطعة التي تأمر بالتواضع وتنهى عن الكبرياء.

وطالما كنت أسمعُ ما يقوله بعضُ الناس حين يتحدث عن نفسه (أعوذ بالله من كلمة أنا)، وهو يريد بذلك أن ينفي عنه التكبرَ والافتخارَ والتعالي ... وهو خلق رفيع، وتواضع جَمّ.

ولفظة «أنا» بتلك المعاني مستفادة من استعمال القرآن الكريم لها، وهو يتحدث عن إبليس والجبابرة فِرعون والنَّمرود ومن سلك سبيلهم.

فتتبعتُ هذه اللفظة في القرآن الكريم، من خلال جهاز الحاسوب الآلي (الكمبيوتر)، ومعجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم للدكتور إسماعيل عمايرة ود. عبدالحميد السيد، المطبوع في مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م الطبعة الثانية، وأحدهما يكمل الآخر، فوجدتُها قد وردت بأساليب متعددة، لكلٍّ منها معنى خاص، يمكننا أن نقسمها إلى نوعين: استعمال مباح، واستعمال محظور.

١- **الإستعمال المباح**: وهو ما ورد بالأساليب الآتية:

* عميد كليّة الدراسات الفقهية والقانونيّة، جامعة آل البيت

أولاً: تنزيه الله تعالى المطلق لنفسه، والتعظيم، والإجلال، وصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره عز وجل، وذلك في المواضع الآتية:

أ ـ الله هو الإله المعبود وحده، المتفرد بخلق الكون، لا شريك له سبحانه.

* قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الملائكة بالرُّوح من أمره على مَن يشاء من عباده أنْ أنذِروا أنه لا إلهَ إلا أنا فاتَّقون﴾ النحل ٢.

ومعنى بالروح: بالوحي وهو النبوة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن أمره: أي بأمره.

ومن يشاء من عباده: الذين اختارهم الله للنبوة[1].

* وقال سبحانه في خطابه لموسى عليه السلام:

﴿إنني أنا الله لا إلهَ إلا أنا فاعْبُدْني وأقِمِ الصلاةَ لذكْري﴾ طه ١٤.

* وقال تعالى: ﴿وما أرسلْنا من قبلِك من رسولٍ إلاّ نُوحي إليه أنّه لا إلهَ إلاّ أنا فاعبُدُونِ﴾ الأنبياء ٢٥.

أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء موجود.

* وقال سبحانه وتعالى موجباً عبادته:

﴿إنّ هذه أُمتُكم أُمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبُدونِ﴾ الأنبياء ٩٢.

الأمة: هنا بمعنى الدين الذي هو الاسلام.

وأنا ربكم: أي: إلهكم وحدي.

* وقال سبحانه عز وجل موجباً تقواه لأنه الإله المعبود:

﴿وإنّ هذه أُمتكم أُمّة واحدةً وأنا ربُّكم فاتقونِ﴾ المؤمنون ٥٢.

والأمة: هنا الدين أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة﴾ الزخرف ٢٢، أي: على دين.

* وقال سبحانه في خطابه لموسى عليه السلام، مؤكداً أُلوهيته بأنه المعبود، وربوبيته أي خلقه الكون كله:

(١) تفسير كلمات آيات هذا البحث من تفسير القُرطُبي وابن كثير.

﴿فلمّا أتاها نُوديَ من شاطيءِ الواد الأيْمنِ في البُقْعة المباركَة من الشجَرة أنْ يا موسى إنّي أنا اللهُ ربُّ العالَمين﴾ القصص ٣.

أتاها: يعني الشجرة، قدم ضميرها عليها.

من شاطيء الواد الأيمن: أي أتاه النداء من شاطيء الوادي من قبل الشجرة عن يمين موسى.

من الشجرة: بدل اشتمال من قوله (من شاطيء الواد)، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطيء، وشاطيء الوادي وشطه: جانبه.

ومن الشجرة: من ناحية الشجرة، ومنها عصاه.

* وقال عزوجل مبيناً أنه الأعلم بما يخفيه الإنسان وما يعلنه:

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياءَ تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسولَ وإياكم أن تؤمنوا بالله ربِّكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي تُسرّون إليهم بالمودَّة وأنا أعلم بما أخفَيْتم وما أعلنتم ومن يَفعلْه منكم فقد ضلّ سواءَ السبيل﴾ الممتحنة ١.

أن تؤمنوا بالله ربكم: تعليل ليخرجون. أي: يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأجل إيمانكم بالله.

وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم: أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون.

* وقال تعالى: ﴿وهل أتاكَ حديثُ موسى ٩ إذْ رأى ناراً فقال لأهله امكثُوا إني آنَسْتُ ناراً لَعلّي آتيكم منها بقَبَس أو أجدُ على النار هُدًى ١٠ فلما أتَاها نُودي يا موسَى ١١ إنّي أنا ربُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنك بالوادِ المقدَّس طُوًى ١٢﴾ طه.

المقدّس: المطهّر.

طوى: اسم الوادي.

ب ـ اللّه العادل الذي لا يَظلم أحداً:

* قال تعالى:

﴿ما يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد﴾ ق ٢٩.

ما يُبَدّل القول لدي: أي ما يُكذب

عندي، أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب. قاله الفرّاء.

وما أنا بظلام للعبيد: أي ما أنا بمعذب من لم يُجْرِم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

جـ ـ الله الذي يغفر الذنوب جميعاً والرحيم بعباده.

* قال تعالى:

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهُدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنُهم الله ويلعنُهم اللاعنون ١٥٩ إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ١٦٠﴾ البقرة.

الذين يكتمون: قيل : هم أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المراد كل من كتم الحق ، فهي عامّة في كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه.

الكتاب : اسم جنس ، والمراد جميع الكتب المنزلة.

* وقال عز وجل :

﴿نَبِّىءْ عِبادي أنّي أنا الغَفورُ الرَّحيمُ ٤٩ وأنّ عذابي هو العذابُ الأليم ٥٠﴾الحجر.

هذه الآية على وزن قوله صلى الله عليه وسلم: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طَمِع بجنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من رحمته أحد) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره، فيخوّف ويرجّى، ويكون الخوف من الصحة أغلب عليه منه في المرض، كما قال القُرطُبي في تفسيره.

د ـ الله هو العزيز، أي الغالب الذي ليس كمثله شيء، وهو الحكيم في أمره وفعله.

* قال سبحانه في خطابه لموسى عليه السلام:

﴿يا موسى إنّه أنا اللهُ العزيزُ الحكيم﴾ النمل ٩.

قيل: قال موسى: يا رب من الذي نادى؟ فقال له: (إنه) أي: إني أنا المنادي لك (أنا الله).

* وقال تعالى:

﴿ كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إن اللّه قوي عزيز ﴾ المجادلة ٢١.

كتب الله: أي قضى ذلك، وقيل: كتب في اللوح المحفوظ، وهذا عن قَتَادة.

ومن بُعث من الرسل بالحرب فإنه غالب بالحرب، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة.

هـ ـ اللّه هو الذي يصطفي ويختار الأنبياء لدعوة الناس إلى الصراط المستقيم:

* قال تعالى في خطابه لموسى عليه السلام:

﴿ وأنا اخترْتُكَ فاستمعْ لما يُوحَى ﴾ طه ١٣.

* وقال عزوجل:

﴿ وإذ أخذ اللّهُ ميثاقَ النبيّينَ لَمَا آتيتُكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مُصدِّقٌ لِمَا معكم لَتُؤمِنُنَّ به ولتنْصُرُنَّه قال ءأقرَرْتم وأخذتم على ذلكم إصْري قالوا أقرَرْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ آل عمران ٨١.

أي: أخذ اللّه تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضاً، ويأمر بعضهم بالإيمان بعضاً، فذلك معنى النصرة بالتصديق. وهذا قول سعيد بن جُبير وقَتَادة وطاوس والسُّدِّي والحسن وهو ظاهر الآية.

لما اتيتكم ....: أي: لمهما آتيتكم .

لَتؤمِنُنَّ به: جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف. وهو كما تقول في الكلام: أخذت ميثاقك لتفعلن كذا، كأنك قلت: أستحلفك.

إصري: عهدي، وهو في اللغة: الثقل، فسمي العهد إصراً لأنه منع وتشديد.

قال فاشهدوا: أي: اعلموا عن ابن عباس. وقال الزجاج: بيّنوا، لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي: وقيل: المعنى اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم.

وأنا معكم من الشاهدين: عليكم وعليهم.

قال على بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي اللّه عنهما: ما بعث اللّه نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث اللّه محمداً صلّى اللّه عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه،

وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

ومن الواضح:

أن الضمير (أنا) أورده اللّه سبحانه في هذه الآيات كلها في مقام التنزيه والتعظيم والجلال والكمال الذي لا يوصف بها سواه سبحانه.

ثانياً: إفراد المعبود و إخلاص العبادة له عز وجل:

* فإبراهيم عليه السلام بعد محاجته للمشركين المذكورة في قوله تعالى: ﴿فلمّا جَنّ عليه الليلُ رأى كوكباً قالَ هذا ربي فلمّا أفَل قال لا أُحِبُّ الآفلين ٧٦ فلمّا رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لَئِن لم يَهْدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالّين ٧٧ فلما رأى الشمسَ بازِغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ فلما أفلت قال يا قومِ إني بريء مما تشركون ٧٨﴾ الأنعام.

انتهى إلى الإيمان المطلق باللّه سبحانه ونفي الإشراك عنه فقال: ﴿إني وجّهتُ وجْهي للذي فَطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشرِكين﴾ الأنعام ٧٩.

وحنيفاً: أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد.

ومعنى الآية: أخلصتُ ديني وأفردت عبادتي للذي خلق السماوات والأرض وابتدعهما على غير مثال سابق.

* وأمر اللّه سبحانه النبيَّ محمداً صلى اللّه عليه وسلم بأن يدعو قومه إلى التوحيد المطلق للّه تعالى.

فقال عز وجل: ﴿قُلْ هذه سَبيلي أدعُو إلى اللّه على بَصيرةٍ ...... وسبحانَ الله وما أنا من المشرِكين﴾ يوسف ١٠٨.

سبيلي: طريقتي وسنتي ومنهاجي.

بصيرة: يقين وحق.

* وأمره سبحانه بأن يبلّغ قومه بأنه نُهي عن عباداتهم من دون اللّه وعن اتباع أهوائهم فيما طلبوه منه من عبادة غير اللّه ومن طرد من أرادوا طرده:

فقال عز وجل: ﴿قُلْ إنّي نُهيتُ أنْ أعبُدَ الذينَ تَدْعُونَ من دون اللّه قل لا أتّبِعُ أهواءَكم قد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من

المهتَدين﴾ الأنعام ٥٦.

وتدعون: أي تعبدون، وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة، أراد بذلك الأصنام.

قد ضللت إذاً: أي: قد ضللت إن اتَّبعت أهواءكم.

* وأمره تعالى بأن ينفي عبادة ما عبد الكفار في الماضي من الأصنام والأوثان ونحوها، فقال سبحانه ﴿قل يا أيها الكافرون ١ .... ولا أنا عابدٌ ما عَبدتُم ٤ ﴾ الكافرون.

* وبين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن عبادة غيره عزوجل ممتنعة:

قال تعالى:

﴿قل إن كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أول العابدين﴾ الزخرف ٨١.

أي: قل يامحمد: لو فرض هذا لعبدتُه على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به ... ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً.

* وبين موسى عليه السلام أنه أول من آمن من قومه بعد أن طلب من اللّه عزوجل أن يراه في قوله عزوعلا :

﴿ولما جاء موسى لِميقاتنا وكلّمه ربُّه قال ربِّ أرِني أنظُرْ إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانَهُ فسوف تراني فلما تَجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكاً وخرَّ موسى صَعقاً فلما أفاق قال سبحانَك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين﴾ الأعراف ١٤٣.

وأنا أول المؤمنين: أي: من قومي. وقيل: من بني إسرائيل في هذا العصر.

* ولما أُسقط في يد فرعون، وأيقن أنه من الهالكين بالغرق، اعترف بأنه ممن أسلم وجهه لله. قال تعالى:

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ فأتْبَعهم فرعونُ وجنودُه بَغْياً وعَدْواً حتى إذا أدركه الغرقُ قال ءامنتُ أنه لا إله إلاّ الذي ءامَنتْ به بنوا إسرائيلَ وأنا من المسلمين﴾ يونس ٩٠.

وأنا من المسلمين: أي: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

لذلك:

* فإن الدعوة إلى اللّه تعالى تكون

خالصةٌ له سبحانه، وهي على يقين وحقّ وحجة وبيان، وتلك طريقته وسنّته ومنهاجه:

قال عزّ وجلّ: ﴿قل هذه سبيلي أدعُو إلى اللّه على بَصيرة أنا ومَن اتَّبَعَني﴾ يوسف ١٠٨.

* وهو ماورد في قوله تعالى:

﴿قل إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحياي ومَماتي لله ربّ العالمين ١٦٢ لا شريك له وبذلك أُمِرتُ وأنا أولُ المسلمين ١٦٣﴾ الأنعام.

وأنا أولُ المسلمين: أي: أوّل المسلمين من أهل ملته، قاله ابن العربي وهو قول قَتَادة وغيره.

* ومن خصائص الرسالات السماوية أنها لا تخصّ أحداً دون آخر مهما كان ضعيفاً خسيس الحال والعمل، فالإيمان هو أساس التفاضل بين الناس، فنوح عليه السلام امتنع عن طرد المؤمنين الفقراء، لما سأله قومه أن يبعدهم عنه، لأنهم مؤمنون بالله حقاً.

قال تعالى: ﴿ويا قَومِ لا أسألُكم عليه مالاً إنْ أجرِيَ إلا على اللّه وما أنا بطارِدِ الذين آمنوا إنهم مُلاقُو ربِّهم ولكنّي أراكم قوماً تَجهلون﴾ هود ٢٩.

لا أسألكم عليه مالاً: أي على التبليغ والدعاء إلى اللّه والإيمان به.

تجهلون: أي: في استرذالكم لهم وسؤالكم طردهم.

وقول نوح عليه السلام هذا ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وما أنا بطارِدِ المؤمنينَ﴾ الشعراء ١١٤.

ثالثاً: النبي المنذِر لقومه من عقاب الله، المبلغ ما أُرسل به إليهم، المبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر دينهم:

* فنوح عليه السلام يقول: ﴿إنْ أنا إلاّ نذيرٌ مُبين﴾ الشعراء ١١٥.

* والرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم وردت عدة آيات بوصفه بهذا، وهي:

قال سبحانه: ﴿قُلْ لا أملِكُ لنفسي نَفْعاً ولا ضَراً إلاّ ما شاء اللهُ ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوءُ إنْ أنا إلاّ نذيرٌ وبَشير لقومٍ يؤمنون﴾ الأعراف ١٨٨.

وقال تعالى: ﴿وقُلْ إني أنا النذيرُ

المُبين﴾ الحجر ٨٩.

وقال عزّ وجلّ: ﴿قُل يا أيها الناس إنّما أنا لكم نذيرٌ مُبين﴾ الحج ٤٩.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وأن أتلُوَ القرآنَ فمَنِ اهتدى فإنَّما يهتَدي لنفسه ومَن ضَلَّ فقُل إنَّما أنا من المنذرين﴾ النمل ٩٢.

أي: وأمرت أن أتلو القرآن، أي: أقرأه.

وقال سبحانه: ﴿وقالوا لولا أُنزِل عليه آياتٌ من ربّه قُل إنما الآياتُ عندَ الله وإنّما أنا نَذيرٌ مُبين﴾ العنكبوت ٥٠.

وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا منذرٌ﴾ ص ٦٥.

وقال عزّ وجلّ: ﴿إنْ يُوحَى إلَيّ إلاّ أنّما أنا نذيرٌ مُبين﴾ ص ٧٠.

وقال عزّ وعلا: ﴿قُلْ ما كنتُ بدْعاً من الرسُلِ، وما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم إنْ أتّبِعُ إلاّ ما يُوْحَى إلَيّ وما أنا إلاّ نذيرٌ مُبين﴾ الأحقاف ٩.

البدع: الأول، أي ما كنتُ أول من أرسل.

وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم: أي لا يدري محمد صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة، ورخص وغلاء، وغنى وفقر، ومثله: ﴿ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير، وما مسّنيَ السوءُ﴾ - الأعراف ١٨٨.

وقال سبحانه: ﴿قُل إنما العلمُ عندَ الله وإنما أنا نذيرٌ مُبين﴾ الملك ٢٦. أي: قل لهم يا محمد: إن علم وقت قيام الساعة عند الله فلا يعلمه غيره.

* وهو ما ورد على لسان هود عليه السلام حين كان أميناً في دعوتِهِ قومَ عاد وناصحاً لهم في قوله عزوجل:

﴿أبلّغكم رسالاتِ ربّي وأنا لكم ناصحٌ أمين﴾ الأعراف ٦٨.

* وهو ما ورد على لسان إبراهيم عليه السلام حين حذّر قومه من الإشراك بالله عزوجل، في قوله تعالى:

﴿قال بل ربكم ربُّ السماوات والأرض الذي فَطَرَهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ الأنبياء ٥٦.

الذي فطرهن: خلقهن وأبدعهن.

وأنا على ذلكم من الشاهدين: أي: على أنه رب السماوات والأرض.

والشاهد يبين الحكم. ومنه: شهد اللّه: بين اللّه. فالمعنى: وأنا أبين بالدليل ما أقول.

* ويماثله كذلك ما ورد على لسان مؤمن آل فرعون ، إذ دعا قومه إلى التوحيد وسبيل الرشاد في قوله عز وجل:

﴿تَدعونَني لأَكفرَ بالله وأُشركَ به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ غافر ٤٢.

قال مؤمن آل فرعون يخاطب قوم فرعون: **﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد ٣٨﴾** ... (تدعونني ... به علم) وهو فرعون.

* والنبي محمد صلى اللّه عليه وسلم ما هو إلا رسول مبلّغ لأوامر اللّه، لا يتكلّف شيئاً ولا يتخرّص ما لم يؤمر به.

قال سبحانه وتعالى: **﴿قل ما أسألكم عليه من أجْر وما أنا من المتكلِّفين﴾** ص٨٦.

* والأنبياء عليهم السلام ليسوا برقباء على الناس.

فشُعيب عليه السلام دعا قومه إلى إيفاء الحقوق وترك التطفيف، وقال لهم كما ورد في الآية الكريمة: **﴿بقيّتُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾** هود ٨٦.

بقية اللّه خير لكم: أي: ما يُبقيه اللّه لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثرُ بركةً وأحمدُ عاقبةً مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم، قاله الطبري وغيره.

وقوله: وما أنا عليكم بحفيظ: أي: رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، أي: لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق.

ومحمد صلى اللّه عليه وسلم ليس برقيب على الناس يحصي عليهم أعمالهم، وإنما هو رسول، قال تعالى: **﴿قد جاءكم بصائرُ من ربكم فمن أبْصَرَ فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾** الأنعام ١٠٤.

والبصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

فمن أبصر فلنفسه: الإبصار هو

الإدراك بحاسة البصر، أي: من استدل وتعرف فنفسَه نفع.

ومن عَمِيَ فعليها: أي: من لم يستدل صار بمنزلة الأعمى، فعلى نفسه يعود ضرر عماه.

وقال سبحانه: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحقُّ من ربكم فمن اهتَدَى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يَضِلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ يونس ١٠٨.

الحق: أي القرآن، وقيل: الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم.

بوكيل: أي بحفيظ أحفظ أعمالكم، إنما أنا رسول اللّه إليكم.

وذلك واضح في تبرؤ النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم من عمل المشركين في قوله عزوجل:

﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملُكم أنتم بريئون مّما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملون﴾ يونس ٤١.

لي عملي ولكم عملكم: أي: لي ثواب عملي في التبليغ والإنذار والطاعة للّه تعالى، ولكم جزاء عملكم من الشرك.

أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون: أي: لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر.

وهذه الآية منسوخة بآية السيف في قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد.

وفي قوله تعالى:

﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريتُه فعليّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تُجْرِمون﴾ هود ٣٥.

فعليّ إجرامي: أي: عقاب إجرامي، والاجرام: اقتراف السيئة.

وأنا بريء مما تجرمون: أي: من الكفر والتكذيب.

* والنبي محمد صلى اللّه عليه وسلم بَشَر ليس بملَكٍ، فلا يعلم إلا ما يعلّمه اللّه تعالى، وعلم اللّه سبحانه لا يحصى.

قال عز وجل: ﴿قل إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم يوحَى إليّ أنما إلهُكم إلهٌ واحد فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادةِ ربه أحداً﴾ الكهف ١١٠.

وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا بَشرٌ مثلُكم يوحَى إلي أنما إلهُكم إله واحد، فاستقيموا إليه واستغفِروه وويل للمشرِكين﴾ فصلت ٦.

قال الحسن: علمه الله التواضع.

رابعاً: في مقام التورّع عن الاعتداء والجريمة خوفاً من الله تعالى:

* قال سبحانه: ﴿واتلُ عليهم نبأ ابنيْ آدمَ بالحق إذْ قَرّبا قُرْباناً فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقبلْ من الآخر قال لأقْتُلَنَّكَ قال إنما يتقبّل الله من المتقين ٢٧ لَئِن بسطْتَ إليَّ يدَكَ لتقتُلَني ما أنا بباسط يَدِيَ إليك لأقتُلَكَ إني أخافُ الله ربَّ العالَمين ٢٨ إني أُرِيد أن تَبُوء بإثمي وإثمك فتكونَ من أصحاب النار وذلك جَزاء الظالمين ٢٩ فطوّعَت له نفسُه قتْلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسِرين ٣٠﴾ المائدة.

في قصة قابيل وهابيل ولدي آدم عليه السلام:

كان قربان قابيل حُزمة من سُنبل، لأنه كان صاحب زرع، واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها.

وكان قربان هابيل كبشاً، لأنه كان صاحب غنم، واختاره من أجود غنمه، (فتقبل) فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فُدي به الذبيح إسماعيل عليه السلام، قاله سَعيد بن جُبير وغيره. فلما تُقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمناً، قال له قابيل حسداً لأنه كان كافراً: أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني؟ لأقتلنك.

قال له هابيل: ولِمَ تقتلني وأنا لم أجنِ شيئاً، ولا ذنب لي في قبول الله قرباني؟ (لئن بسطت إلي يدك) أي: لئن قصدت قتلي فأنا لا أقصِد قتلك، (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك)، فأراد هابيل: أني لست بحريص على قتلك، فالإثم الذي كان يلحقني لو كنتُ حريصاً على قتلك، أريد أن تحمله أنتَ مع إثمك في قتلي..

خامساً: الإخبار بحقيقة الأمر:

* ورد ذلك الإخبار على لسان سارة زوجة إبراهيم عليه السلام حيث بينت أنها عجوز لا تلد، في قوله عزوجل:

﴿ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى ... وإمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاقَ ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ ٧١ قالت يا ويلتى ءألدُ وأنا عجوز وهذا بَعلي شيخاً إنّ هذا لَشيء عجيب ٧٢﴾ هود.

قالت: أي: سارة امرأة إبراهيم.

* وورد على لسان جبريل عليه السلام حين تمثل لمريم عليها السلام رجلاً مستوي الخلقة فظنت أنه يريدها بسوء، فاستعاذت بالله منه، فبيّن لها حقيقته، وأخبرها أنه رسول من عند الله. قال تعالى:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بَشَراً سَوِيّاً ١٧ قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تَقياً ١٨ قال إنما أنا رسول ربك لأهبَ لك غُلاماً زَكِياً ١٩﴾ مريم.

وروحنا: هو جبريل، وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامة.

إن كنت تقياً: أي ممن يتقي الله.

* وورد على لسان يوسف عليه السلام إذ بيّن لاخوته أنه خير المضيفين في قوله تعالى:

﴿ولما جَهَّزهم بجَهَازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترونَ أنّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزِلين﴾ يوسف ٥٩.

وأنا خير المنزلين: أي: خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم، وهو قول مجاهد.

* وورد على لسان يوسف عليه السلام حين أخبر أخاه عن نفسه ليطمئن إليه.

قال تعالى: ﴿ولما دخلوا على يوسُفَ آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يعملون﴾ يوسف ٦٩.

* وورد ذلك حين أخبر إخوته لمّا خضعوا له وتواضعوا، فرقّ لهم وعرّفهم بنفسه.

قال تعالى: ﴿قال هل علمتم ما فَعلتم بيوسُفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ٨٩ قالوا أإنك لأنتَ يوسُفُ قال أنا يوسُفُ وهذا أخي قد مَنَّ اللهُ علينا إنه من يتَّقِ ويَصبِرْ فإن اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ٩٠﴾ يوسف.

* ومنه ما ورد على لسان امرأة العزيز، إقراراً منها واعترافاً بذنبها، وإظهاراً لتوبتها وتحقيقاً لصدق يوسف

عليه السلام، قال سبحانه: ﴿قالت امرأةُ العزيز الآنَ حصحص الحقُّ أنا راودتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ يوسف ٥١.

حصحص الحق: تبين وظهر.

* ومن بيان الحقيقة والاعتراف بالواقع قولُ اللّه تبارك وتعالى في قصة صاحب الجنة الكافر الذي يفخر بماله وولده على الفقير المؤمن:

﴿ولو لا إذْ دخلتَ جنتَك قلتَ ما شاء اللـهُ لا قوةَ إلاّ بالله إن تَرَنِ أنا أقَلَّ منك مالاً وولداً﴾ الكهف ٣٩.

قلتَ: أي بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر، وردّ عليه إذ قال: (ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبداً).

لا قوة إلا باللّه: أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة اللّه تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

* ومن بيان الاعتراف بالحقيقة قوله عزوجل مبيناً قول موسى عليه السلام في قتله المصري:

﴿قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين﴾ الشعراء ٢٠.

أي: قال موسى: فعلت تلك الفعلة، يريد قتل المصري، وأنا إذ ذاك من الجاهلين، فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على جهل.

* ومن الإخبار مع بيان القوة والقدرة على الفعل ما ورد على لسان عفريت الجن في خطابه لسليمان عليه السلام في قوله تعالى:

﴿قال عِفْريتٌ من الجن أنا آتيكَ به قبلَ أن تقومَ من مقامكَ وإني عليه لَقويٌّ أمينٌ ٣٩ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيكَ به قبل يرتَدَّ إليك طَرْفك ٤٠﴾ النمل.

عفريت: الداهية أو الرئيس.

من مقامك: يعني في مجلسه الذي يحكم فيه.

قوي: أي: على حمله.

أمين: أي: على ما فيه.

قبل أن يرتد إليك طرفُك: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: أفعل كذا في لحظة عين.

* ومن ذلك قول يوسف عليه السلام: أنا كفيل بحمل بعير لمن جاء

بصواع الملك، في قوله تعالى:

﴿قالوا نَفقِد صُواعَ الملكِ ولمن جاء به حِملُ بعير وأنا به زعيم﴾ يوسف ٧٢.

وأنا به زعيم: أي: وأنا بهِ كفيل.

* ومن مجرد الإخبار ما جاء على لسان ساقي الملك في قصة يوسف، قال تعالى: ﴿وقال الذي نجا منهما وادَّكَر بعد أُمَّةٍ أنا أُنَبِّئُكم بتأويله فأرْسِلون﴾ يوسف ٤٥.

وادَّكر: تذكر حاجة يوسف وهي قوله له في السجن: ﴿اذكرْني عند ربك﴾ يوسف ٤٢.

بعد أُمّةٍ: بعد حين، كما روي عن ابن عباس وغيره.

فأرسلون: خاطب الملك بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهل مجلسه.

* وما جاء على لسان إبليس حين تبرّأ ممن اتبعوه ، في قوله تعالى ﴿وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ إنّ اللهَ وعدَكم وعْدَ الحق ووعدتُكم فأخلفْتُكم وما كان لي عليكم من سُلطان إلاّ أن دَعَوتُكم فاستجَبْتُم لي فلا تَلُوموني ولُوموا أنفسَكم ما أنا بمُصرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ إني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبلُ إنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾ إبراهيم ٢٢.

قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار، يسمعه الخلائق جميعاً.

لما قضي الأمر: أي حُصّل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

من سلطان: أي من حجة وبيان.

ما أنا بمصرخكم: أي: بمغيثكم، وما أنتم بمصرخي: أي: بمغيثي .

والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المغيث.

بما أشركتمون: ما مصدرية، أي كفرتُ بإشراككم إيايَ مع اللّه تعالى في الطاعة.

٢ - الاستعمال المحظور: وهو ما ورد بالأساليب الآتية:

أولاً: الاعتراض على اللّه سبحانه في خلقه:

* وهو ما جاء على لسان إبليس

حين اعترض على اللّه سبحانه إذ خلق آدم من طين. قال تعالى:

﴿قال ما مَنَعكَ ألاّ تَسجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قال أنا خَيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقتَه من طينٍ﴾ الأعراف ١٢.

* ومثله قوله تعالى:

﴿قال يا إبليسُ ما منعكَ أن تسجُدَ لِما خلقتُ بيديّ أستكبرتَ أم كنتَ من العالين ٧٥ قال أنا خير منه خلقتَني من نار وخلقتَه من طين ٧٦﴾ ص.

أي: منعني من السجود فضلي عليه، فرأى إبليس أن النار أشرف من الطين، لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء، ففضّل النار على الطين جهلاً منه، لأن الجواهر متجانسة، فقاس فأخطأ القياس. قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس ابليس فأخطأ القياس.

ثانياً: إدعاء الإحياء والإماتة والربوبية استكباراً وعناداً:

* ادعى النُّمْرُود الإحياء والإماتة إذ حاجج إبراهيم عليه السلام، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربه أن آتاه اللهُ المُلْكَ إذْ قال إبراهيمُ ربي الذي يُحيي ويُميت قال أنا أُحيي وأُميتُ قال إبراهيمُ فإن الله يأتي بالشمسِ من المشرِق فأْتِ بها من المغربِ فبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القومَ الظالمين﴾ البقرة ٢٥٨.

قال الربيع وغيره: إن النُّمْرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه لما قال: أنا احيي وأميت، أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر، فقال: قد أحييتُ هذا وأمتُّ هذا، فلما رد عليه إبراهيم بأمر الشمس بهت.

وذكر الأصوليون في هذه الآية: أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة ـ لكنه أمرٌ له حقيقة ومجاز ـ قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة، وفَزِع نُمرود إلى المجاز، وموّه على قومه، فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال، وجاءه بأمر لا مجاز فيه (فبهت الذي كفر)، أي: انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الألباب يكذبونه.

* وادّعى فرعونُ الربوبية ظلماً وعُلُوّاً بعد أن أظهر موسى عليه السلام

معجزة العصا.

* قال تعالى:

﴿فأراه الآيةَ الكبرى ٢٠ فكذّب وعصى ٢١ ثم أدبر يَسعى ٢٢ فحَشَر فنادى ٢٣ فقال أنا ربُّكمُ الأعلى ٢٤﴾ النازعات.

ثالثاً: التعالي على الأنبياء وتحقيرهم.

* قال تعالى: ﴿ونادى فرعونُ في قومه قال يا قومِ أليس لي مُلكُ مصر وهذه الأنهارُ تَجري من تحتي أفلا تبصرون ٥١ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهين ولا يَكاد يُبين ٥٢﴾ الزخرف.

فبعد أن افتخر فرعون بأنه يملك مصر، قال لقومه: أفلا تبصرون عظمتي وقوتي وضعف موسى، و (أم) بمعنى (بل) كما قاله أبو عبيدة والسُّدّي، أي: بل أنا خير من موسى، إذْ لا عزّ له، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه، ولا يكاد يفصح عن كلامه لما كان في لسانه من العقدة تنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، وهذه العقدة أذهبها الله تعالى بدعائه: ﴿واحلُلْ عُقدةً من لساني ٢٧ يَفقهُوا قولي ٢٨﴾ طه.

رابعاً: الافتخار على الآخرين بكثرة المال والولد والخدم والأتباع، مع أن هذا العزّ زائل.

* ففي قصة الكافر صاحب الجنتين الذي افتخر بماله وولده على المؤمن الفقير.

قال سبحانه: ﴿وكان له ثَمرٌ فقال لصاحبه وهو يُحاورُه أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نَفَراً ٣٤ ودخَل جنَّتَه وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظُنّ أن تَبيدَ هذه أبداً ٣٥﴾ الكهف.

الخلاصة:

بعد استقراء الآيات الكريمة التي ورد فيها الضمير (أنا) يتضح أنه استعمل فيها استعمالان:

أولهما: الاستعمال المباح: وهو ما ورد في:

- مقام توحيد الله سبحانه وتنزيهه ووصفه بأوصاف الكمال المطلق اللائقة به عز وجل، كالعادل والغفور والرحيم والعزيز الغالب القوي والمختار الفعال لما يريد، وهو استعمال حقيقي يتفق مع

منزلة الخالق لكل شيء سبحانه وتعالى.

- وما ورد على لسان الرسول وهو يدعو إلى توحيد المعبود وإخلاص العبادة له، وما الرسول إلا بشر مبلغ ما أوحى الله إليه ونذير مبين. وما كانت رسالته إلا دعوة إلى الله تعالى يقدم فيها الأكرم عند الله وهو الأتقى.

وما هذا إلا تلبية لأمر الله تعالى بذلك، وليس فيها ما يرتفع بالنبي من حيث البشرية إلى مستوى أعلى من غيره من الناس مع التواضع الكبير.

- وما ورد أيضاً في مقام صد النفس عن العدوان على الآخرين.

- والإخبار بحقيقة الأمر.

وليس في هذه المعاني ما يفيد الزهو والافتخار على الآخرين والتكبر عليهم وازدراءهم، وعليه فاستعمال الضمير (أنا) في مثل هذه المواضع لا حرج فيه.

الثاني: الاستعمال المحظور :

وهو ما ورد في:

- مقام الاعتراض على الله سبحانه في خلقه.

- وادعاء الربوبية والإحياء والإماتة، ظلماً وعلواً واستكباراً.

- والتعالي على الأنبياء.

- والافتخار على الآخرين بالملك والمال والولد، واحتقارهم، والاستهزاء بهم.

وفي المقامين الأولين تطاول على مقام الألوهية.

وفي المقام الثالث تطاول على مقام النبوة، تجبراً وعناداً.

أما في المقام الرابع فهو احتقار الآخرين والترفع عليهم، والمرء منهيٌّ عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً إنّكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طولاً﴾ الإسراء ٣٧.

وقوله عزّ وجل: ﴿ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ للناسِ ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنّ اللهَ لا يُحِبّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ﴾ لقمان ١٨.

واستعمال الضمير (أنا) في مثل هذه المقامات حرام، فينبغي أن يلزم المتكلم حدود الأدب مع الله والناس.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.